

الداي حسين باشا و الأزمة الجزائرية-الفرنسية 1827-1830

أ. محمد شن

جامعة الجلفة

تميزت العلاقات الجزائرية — الفرنسية ، بالتأرجح بين الودية حيناً والصراع حيناً منذ القرن السادس عشر ميلادي¹ ؛ فقد كانت فرنسا تتمتع بامتيازات هامة تمثلت في الشركات التجارية بالشرق الجزائري في عناية والقالة والقل² ، حتى عهد الداى حسين³ الذى ورث عدة معاهدات اقتصادية وتجارية كان قد وقعها سابقوه مع فرنسا⁴ . ومنذ أن تولى الداى حسين استمر هو الآخر في سياسة سابقيه ، إذ جدد معاهدة السلم والتجارة⁵ مع فرنسا يوم 29 مارس 1818 ، ولذلك أخذت فرنسا تدعم مركزها الاقتصادي في الجزائر ، ففي عام 1823 أسندت حق احتكار صيد المرجان إلى شركة مرسلية يديرها المدعو "باري- Paret"⁶ ، فأصلحت الباستيون بالقالة ووضعت يدها عليه .

وفي نفس العام ، اعتصم بعض المتمردين في السفارات الأجنبية بالعاصمة ، وطالب الداى القنصل "دوفال" بإخراجهم فامتثل القنصل الفرنسي لذلك .

ورغم أن الداى كان تعهد لفرنسا عام 1825 ، باحترام مراكبها التابعة لكورسيكا والبابا ، إلا أن البحارة الجزائريين ، أسروا باخرة "سان فرانسيسكو دوبولو" و"باخرة" "سان انطونيو" لروما عام 1826 واقتادوها إلى عناية ، فاحتج نائب القنصل "الكسندر دوفال" - حفيد بيير دوفال - بعناية .

كما قام الرياس الجزائريون بتفتيش مركبين فرنسيين كانا في طريقهما من كورسيكا إلى طولون ، فطلب القنصل الإعتذار على ذلك ، وتعويض السفينتين اللتين بيعتا في عناية ، وإطلاق سراح طاقميهما ، ولكن الداى اتخذ إجراء آخر ؛ إذ قرر فرض مراقبة السفن التي تغدو بين موانئ الجزائر وميناء طولون وتفتيشها ، ابتداء من نوفمبر 1826⁷ ، مما سيعيد تأزم العلاقات الثنائية .

جذور الأزمة الفرنسية - الجزائرية

1- قضية تصفية الديون

تعود هذه القضية إلى زمن الغزو الفرنسي لإيطاليا ومصر سنة 1798 ، حيث ساعدت الجزائر فرنسا بالأموال على شكل قروض ، وقد كانت فرنسا تتعامل مع الجزائر بواسطة "الشركة الملكية الإفريقية- Compagnie Royale D'Arique" ، بسعر لا يتجاوز 43 فرنك للقنطار الواحد ، ولكن فرنسا خالفت ذلك وأخذت تتعامل مباشرة مع شركة "كوهين بكري (بوخرىص)⁸ وبوشناق" ، من يهود ليفورن بإيطاليا . ورفع هذا التعاقد الفرنسي اليهودي معدل السعر من 43 فرنك إلى 120 ألف فرنك .

إن هذا التدبير السياسي الإستعماري يهدف إلى اقتسام الأرباح ، التي كان الواجب أن تستفيد منها أولاً خزينة الحكومة الجزائرية .

وتواصلت المعاملة التجارية بين الجزائر وفرنسا ، التي كلما طالبتها حكومة الداى ، إلا تماطلت الشركة واعتذرت⁹ .

واستمرت فرنسا في استيراد القمح من الجزائر بمعدل مليون فرنك سنويا ، إلى أن تجمع لديها من الدين الذي ارتفعت أرباحه إلى أربعة وعشرين مليون فرنك، كل ذلك والشركة لا تحيط الداى شيئا من الإيضاح حول قضية الدين.

وخلال عهدي الجمهورية الأولى (1792-1804) و الإمبراطورية الأولى

(1804-1814) ، كانت الديون معلقة بسبب حروب فرنسا مع أوروبا، وعندما عادت ملكية البوربون، ونصب "لويس الثامن عشر" على العرش(1814-1824)، أثرت المشكلة من جديد وألح الداى على ضرورة تصفية الديون ، واقترح وزير الخارجية القس "طاليران" ، إنهاء القضية وقدم تقريرا إلى الدوق "ريشليو - Richelieu" عام 1818 حدد فيه مبلغ 13893844 فرنكا كقاعدة لها ، بما فيها الأرباح المقدرة ب 3984420 فرنك ، فاجتمعت لجنة مالية من السادة "هيلى دواسل - Hily Doissel" و "مونيبي - Maunier" و "دوسيير - Dossiere" و "مالارتيك - Malartic" ، لدراسة هذه المبالغ ، وكلف الداى حسين من قبله السيدين "نيكولا بلفيل - Nicolas Belle ville" و "راية المكاجم - Rayat Elmakajeem" ، ليمثلاه في هذه اللجنة ، وقدم لهما قيمة مبلغ الديون ، ليصرحا به للجنة وهو أكبر من المبلغ المقدر من طاليران وهو 16431350 فرنك.

وبعد مداوات انتهت اللجنة إلى الإعتراف بمبلغ 7000000 فرنك كحد أعلى للديون ، وتقرر أن تدفع كل إثني عشر قسطا بين قسط و آخر خمسة أيام ، ووقع ذلك في 28 أكتوبر 1819¹⁰.

وأصدر البرلمان قانونا بذلك يوم 24 جويلية 1820، وطبق الإتفاق في نفس الفترة ، فدفعت حصص بكري ، وأوقفت بعض الحصص بسبب ظهور معارضين من عائلة بكري نفسها ، الذين طالبوا بديون أخرى. وحاول "نيكولا" رفع الأمر للمحاكم ، وبالتالي لم تلبث الخزينة أن دفعت 4500000 فرنكا ، وحجزت 2500000 فرنكا لصالح هؤلاء الدائنين حتى يتم التحقيق في دعاويهم. وقد عجلت الحكومة الفرنسية في دفع 4500000 فرنك التي هي حصة الداى إلى موكلية من عائلة بكري حتى تنهي المشكل.

ولكن أفراد عائلة بكري خدعوا الداى ، بعد أن قبضوا الأموال ، وقرروا عدم العودة للجزائر ، فتجنس بكري بالجنسية الفرنسية ورحل بوشناق إلى ايطاليا¹¹.

ومنه أخذ الداى يرسل الحكومة الفرنسية ، لكن القنصل الفرنسي "دوفال" المتواطئ مع اليهود ، حال دون رد الملك الفرنسي على رسائله واكتفى أن طلب من قنصله تبليغ الداى استحالة تلبية مطالبه .

وعليه أتهم الداى القنصل "دوفال" ، أنه يحجب الرسائل الموجهة له من الحكومة الفرنسية ، واعتقل عددا من أفراد عائلة بكري ، وخاصة يعقوب بكري و سجنهم¹² وطالب فرنسا أن تسلم له مبلغ 2500000 فرنك الباقي في الخزينة الفرنسية، على إثر رسالة بعثها لوزير الخارجية الفرنسي البارون "دي داماس - De Damas" يوم 26 أوت 1826 دون علم القنصل الفرنسي¹³ .

2-حادثة المروحة وقطع العلاقات الجزائرية-الفرنسية

وبينما الأجواء السياسية الداخلية تتعكر وظهور معارضة داخلية في البرلمان ، إذ بحكومة البوربون وعلى رأسها "شارل العاشر(1824-1830)" ، تدبر مكيده لتحويل اتجاه استياء الرأي العام الداخلي ، حتى تظهر منتصرة¹⁴

، فأوعزت إلى شركة "باري — Paret" المرسلية ، تنشيط باستيون القالة بل عزمت إلى تخصيصه كأفها تعلم بما سيحدث ، فخصصت مبلغ 320000 فرنك لذلك ، وأحاط الإنجليز الـداي حسين وبصروه بتلك الإجراءات¹⁵ .

والحقيقة أن فرنسا كانت عازمة على العدوان فأوحت يومئذ لممثلها بالجزائر القنصل "دوفال- بيير" باستفزاز الـداي ، لإذكاء الحرب ، فأخذ يراقب الفرصة المواتية ، حتى جاءت مناسبة عيد الفطر¹⁶ ؛ ففي صباح يوم 29 أبريل 1827 ، تقدم القنصل كغيره من القناصل لتهنئة الـداي بالعيد ، بقصر الـداي أين دار حديث طويل بين الطرفين حيث استفسر الـداي عن أسباب التعزيزات العسكرية والاقتصادية التي قامت بها فرنسا بالقالة ، فاستنكر الـداي ذلك ، كما تعجب الـداي عن سكوت حكومة فرنسا عن إجابته على رسائله .

وكان من الواجب على "دوفال" أن يقدم تـريرات وتوضيحات منطقية ، خاصة أنه أمام حضرة رئيس دولة ، ولكنه فعل عكس ذلك ؛ إذ أحاب الـداي بنوع من الخرطسة والاستخفاف بحكومة الجزائر ، مما لا يليق بقوانين وقواعد البروتوكول العامة ؛ فقد ورد عن شاهد عيان حضر تلك المقابلة ، أن القنصل وضع بيده على سيفه مهددا الـداي قائلاً له "أن حكومي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم"¹⁷ ، وتمادى القنصل في كلامه ، وقال "يـمتنع على حكومة الجزائر أن تراقب سير سفن فرنسا المتجولة بهذا البحر (الأبيض المتوسط) ... لا يسوغ لك أيها الـداي ، أن تتعرض لمسير المراكب الفرنسية... ومثلها في ذلك مراكب البابا والطوسكان أيضا ، والحال أنهما في حالة حرب ضد الجزائر..."¹⁸ ، فاشتد إذ ذاك غضب الـداي ، وكما يقول الزهار: "وكانت بيده (الداي) منشة ينش بها الذباب ، فضربه (أي القنصل) بها وشمته الرأي"¹⁹ .

ويؤكد لنا الطبيب الألماني "بفايفر" عن الحالة التي كان عليها الـداي فقال: " أن القنصل أحاب الـداي قائلاً "أن حكومة (القنصل) تفضل أن ترسل أسطولها ، وجيوشها للشواطئ الجزائرية ، وترفع أعلامها فوقها ، لتكون عبرة للداي ، على أن تستجيب لمطالبه"²⁰ . وكلا الرجلين "الزهار وبفايفر" كانا يومئذ على مقربة من الـداي . هذا ويرى طرف ثالث ، وهو أحمد الجزائري ،خلاف ما ذهب إليه المصادر كلها ؛ فهو يرى أن الضرب في حد ذاته لم يقع ، بل إن الـداي لما تحده القنصل بكلامه هم بقتله وعند ذلك توسط نائب الـداي إبراهيم بين الطرفين وقال للداي : "أن الشريعة لا تجوز قتل المستأمن"²¹ .

وهكذا اعتبر هذا الحادث حدا فاصلا في العلاقات الجزائرية —الفرنسية ونجح القنصل الفرنسي في خطته، واعتبرت فرنسا ذلك إهانة لشرفها وكرامتها وكأنه لأول مرة ، يتعرض ممثلوها لمثل ذلك.وعليه اعتبرت السلطة الفرنسية الحدث السابق مبررا جديدا للعدوان والاعتداء على الجزائر.

3-الحصار البحري الفرنسي (جوان 1827-جويلية 1829) ومرحلة التفاوض

بدل أن تدرس فرنسا مشكل حادثة المروحة ،أرسلت الضابط "كوللي — collet" على رأس ستة مراكب وطلبت منه إستصدار اعتذار من الـداي بالقوة . ولما وصل الضابط إلى ميناء الجزائر يوم 11 جوان 1827 ، التحق به "دوفال" وسبعة أشخاص من أفراد القنصلية ، وفي 15 جوان 1827 وسط "كوللي" قنصل سرديبيا الكونت "داتيلي دولاتور — Daattili de la tour" وحمله شروطه الكفيلة بتحقيق السلم ولخصها فيما يلي:

1- أن يرسل الداى وفدا يتألف من وكيل الخرج و وزير البحرية والخارجية وأميرال البحرية وضابط الميناء ، إلى باخرة "كوللي" ، لتقديم اعتذار رسمي عما حصل مع القنصل .

2- أن تطلق المدافع مائة طلقة مدفعية تحية له .

3- أن يرفع العلم الفرنسي على قصر الداى وأبراج وحصون المدينة ويعطى مهلة أربعة وعشرين ساعة لتنفيذها.²²

ولما رفض الداى تلك المطالب ، شرعت البواخر الفرنسية في استعمال العنف وفرض الحصار البحري على العاصمة ، في غياب المراكب والسفن الجزائرية، وأسرت قوات بحرية فرنسية أخرى إلى ساحل القالة وعنابة لترحيل الجالية الفرنسية ونائب القنصل الفرنسي، قبل أن يقوم مبعوث الداى "سي الحفصي بن عون" بتخريب وتدمير المؤسسات الفرنسية واعتقال من بها، إذ لما وصل "سي الحفصي" ، هدم الباستيون وأحرق المخازن²³ ، ورحل "دوفال" إلى فرنسا ، ومات هناك ، قبل أن يشاهد نتائج طيشه السياسي .

وقد حاول الجزائريون يوم 02 أكتوبر 1827 فك الحصار وخرجوا إلى "رأس كاكسيم" ، لكنهم اضطروا أن يعودوا في الليلة الموالية . ومن سوء الحظ للجزائر أن كان أسطولها في هذه الأزمة يساعد الأسطول العثماني في واقعة نغارين (20 أكتوبر 1827) كما سبق الإشارة إلى ذلك.

واصل "كوللي" حصار المدينة حتى سبتمبر 1828، ثم ألم به مرض ، فحل محله الضابط "لابروتونيير - La Bretonniere" ، وحاولت أربع بوآخر جزائرية أن تفك الحصار ، فلم توفق واعتصمت "برأس كاكسيم" مدة من الزمن .

وفي يوم 18 جوان 1829 ، اصطدمت مجموعة من المراكب الجزائرية بعدد من المراكب الفرنسية ، قرب "رأس جنات" ، ففقد الفرنسيون ثلاثة زوارق وخمسة وعشرين شخصا .

ولما طال الحصار رجع "لابروتونيير" إلى فرنسا ، واقترح على وزير البحرية "هيد دونوفيل - Hyde de Neuville" أن يكلف من يفاوض الداى، عله يقبل الصلح هذه المرة ، فاستحسن الوزير الفكرة وكلف بها "اندريادي نيرسيا - Andréa Denercia" بالمهمة . وعندما وصل إلى الجزائر يوم 23 جويلية 1829 أجل الداى استقباله حتى أحر الشهر، بحضور "لابروتونيير" وكتابه "قابري - Garbie" والمترجم "بيانشي - Pianchi" كاتب الملك الفرنسي²⁴ .

ورغم أن الاجتماع دام ساعتين ، إلا أن الداى رفض إعلان الهدنة وإرسال وفد إلى فرنسا للاعتذار واشترط لإبرام الصلح أن تهدى له حسب رواية المؤرخ "قارو - Garrot" باخرة "أليرت - Alerte" ، وهو أمر يدعو للسخرية أن صح . وأشيع أن وصول الباخرة الانجليزية "بيلوروس - Pilorus" إلى مياه مدينة الجزائر، لها دور في تشدد الداى حسين ، وانسحب الوفد الفرنسي على أن يتلقى الجواب النهائي يوم 02 أوت 1829.

ولما مر يوم 03 أوت 1829²⁵ دون جواب ، غادر الوفد الفرنسي الجزائر وتعرضت الباخرة الفرنسية "لابروفنس - La Province" لطلقات نارية من مدفع بالساحل دون علم الداى²⁶ . وبعد ذلك أقال الداى وزير البحرية²⁷ . ومهما يكن، فقد زاد هذا الحادث في شقة الخلاف.

استعلم "لابرتونير" عن وسائل دفاع المدينة، وكاتب مجلس الدولة الفرنسي، واقترح مواصلة الحصار دون القذف ، إلى أن يتم إرسال النجذات والقوات الكافية .

وفي هذه الظروف الصعبة²⁸ ، جنح مركبان فرنسيان في " رأس بن قوط — cap Bengut " يوم 15 ماي 1829 ، وأسر السكان على ظهريهما مائتين وعشرين فرنسيا وقسموهم إلى مجموعتين²⁹ ، فزاد هذا الحادث في تعميق الخلاف أيضا.

هذا وكانت للحصار البحري الفرنسي على الجزائر آثارا سلبية ، لكلا الطرفين؛ فقد حال دون التبادل التجاري الجزائري مع دول أوروبا وتسبب في تحويل الطرق التجارية للقطاع الشرقي من البلاد إلى تونس ، ولم تبق سوى مراسي وهران ، أرزيو ، على اتصال بإسبانيا ، مستفيدة من موقعها القريب من جبل طارق بواسطة المغرب . أما فرنسا فقد كلفها هذا الحصار خسائر قدرت بمليوني فرنك³⁰ ، رغم أنها سوف تعوضها من الخزينة الجزائرية عند الاحتلال ، بل وأكثر من اللازم .

4- الحملة الفرنسية على الجزائر

بعد أن تدهورت أوضاع الجزائر ، قررت فرنسا غزوها بقواتها الخاصة أواخر جانفي 1830³¹ ، وأخرجت من الرفوف التقارير والمخططات التي أعدت منذ السنوات السابقة³² ، مثل مشروع بوتان 1808³³ ، وقررت أن تترل القوات الفرنسية في شبه جزيرة سيدي فرج .

وفي يوم 01 جانفي 1830 ، أمر الملك الفرنسي بتجهيز الحملة ؛ عين الأميرال "دوبيري — De Pere" ، رئيسا وقائدا للحملة كلها يوم 13 مارس 1830 ، وتجمعت القوات الفرنسية أواخر أبريل 1830 في طولون ومرسيليا ، واكس ، واشتملت على 38000 شخصا و 4000 حصانا و 701 سفينة من مختلف الأشكال والأحجام ، منها 103 حربية و 333 تجارية للشحن و 130 مركبا صغيرا و 35 "شالاند — Chaland" و 30 مركبا³⁴ . وتم الاتفاق مع إسبانيا ، على تزويد هذه الحملة بالمؤن والذخائر وإصلاح المراكب المعطوبة وفتح مخازن لها في ميناء "ماهون"³⁵ .

خرجت الحملة من ميناء طولون يوم 25 ماي 1830 ، وقبل انطلاقتها كان الرئيس "بولنيك" قد قدم مشروعا لرئيس مجلس الوزراء، عرض فيه الخطة التي ينبغي اتخاذها ، حول تقرير مصير الجزائر، بعد الإنتصار عليها وجاء المشروع في أربع نقاط :

1- إبقاء الداى في حكم الجزائر، على أن تشرف عليه فرنسا من الناحية العسكرية ، فتحدد له عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الاحتفاظ به .

2- أو إعادة الجزائر للدولة العثمانية، لإنشاء حكومة فيها تضمن احترام الجزائريين للملاحة في البحر المتوسط .

3- أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا .

4- أو أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وأن تستغلها اقتصاديا .

لكن الرأي الأخير هو الذي غلب³⁶ .

وجاء قائد الحملة "دو بورمون" ، بتعاليم من باريس مأمورا بتنفيذها ومنها ألا ينبغي له أن يسعى للمفاوضات، بل يكون هدفه هو الإحتلال ، وإذا عرض الداى عليه الصلح قبل نزول الحملة إلى البر فيمكنه قبول المبدأ ، ولكن بشروط منها:

- ✓ يسافر وفد من كبار الشخصيات للإعتذار لدى حكومة باريس.
- ✓ يتعهد الداى بإلغاء الرق والقرصنة .
- ✓ يدفع الداى غرامة قدرها خمسين مليون دينارا فرنكا.
- ✓ يعود الداى إلى تبعية الدولة العثمانية .
- ✓ يجدد الداى امتيازات فرنسا السابقة .
- ✓ يتنازل الداى لفرنسا عن جزء من الساحل، يمتد من عنابة حتى حدود تونس³⁷.

5- علم الداى بالحملة واستعداده لها

اتصلت إدارة الاستعلامات الجزائرية من طرف الجواسيس الإسبان بوثائق تتضمن خبر يبنى غزو فرنسا للجزائر في 1830، وهذا ما كتبه رجال قلم المخابرات والاستعلامات إلى الداى : "الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه المعظم المكرم المجاهد في سبيل الله المحترم سيدنا حسين باشا ، محروسة الجزائر نصره الله وخلد ذكره ومآثره ، السلام على مقام سيدنا العالى بالله ورحمة الله وبركاته عن خير سيدنا أدام وجوده آمين . ومما يجب الإعلام به لسيدنا .. قد تواتر ذكر الفرنسيين يريدون حرب ثغر الجزائر برا وبحرا ... " ³⁸ .

وقد كان الداى على علم حتى بالمكان الذي يتزل به الفرنسيون ، فقد ذكر "أحمد باي" في مذكراته "... في سنة 1830 ذهب (أحمد باي) إلى مدينة الجزائر لأداء الدنوش... حضرت بين يدي الباشا (و) قال لي : " ليس لديكم أكثر من الوقت الكافي للخروج إلى الفرنسيين الذين سيتزلون بسيدي فرج ، إنني أعرف مكان التزول من الرسائل التي تصلني... " ³⁹ .

ولهذا أخذ الداى يستعد لمواجهة الحملة ، فذكر "بفايفر" أن الداى أسرع بإرسال الرسل إلى البايات وإلى شيوخ القبائل ، يخبرهم بتزول القوات إلى البر ويأمرهم بالاستعداد لمواجهة العدو" ⁴⁰ .

وتؤكد تقارير القنصل الانجليزي السيد "سانت جون — Saint John" أن الداى نفسه كان مصمما على مجاهدة الفرنسيين ، فقد أمر بإعطاء مائة وخمسين دولارا لكل مقاتل ، يحمل له رأس أي فرنسي ميتا أو حيا ، ففي 33 ماي 1830 فقط كان قد وزع إثني عشر ألف دولار ⁴¹ .

كما كتب الداى حسين إلى باي وهران وأمره بتحسين المدينة وأمر باي قسنطينة بتحسين ميناء عنابة ⁴² . أما على مستوى العاصمة فإن الاحتياطات الوحيدة التي اتخذها الداى على المستوى البري أن أمر الآغا "أفندي" بإضافة بعض المدافع إلى حامية سيدي فرج وأرسل إليها ، بضع مئات من الجنود ، كما أقام مخازن للحبوب من القمح والشعير في المدينة وما حولها .

أما من الناحية البحرية فقد حظي ميناء الجزائر بعناية هامة وقد كانت الحاميات والمواقع الدفاعية تمتد على الشاطئ من الشرق الى الغرب .

كما أقيمت أيضا ثلاث سلاسل قوية متينة قرب الساحل داخل الميناء وكانت السفن الحربية راسية خلفها في مأمن وأمامها خمسون زورقا .

ورغم هذا، فقد كان الداى يعتقد أن الحملة سوف تفشل مثل سابقاتها⁴³ .

وفي أوائل شهر ماي 1830، حمل جاسوس أخبارا مفادها أن أسطولا فرنسيا يزيد عن ستمائة سفينة ، قد غادر ميناء طولون، فأذاع الداى بعد ذلك في المدينة ونواحيها ، أن أسطول الكفار في طريقه للجزائر. وبهذه المناسبة سمح الداى للقبائل والعرب بحمل السلاح الذي كان ممنوعا عليهم .

ولم يكن الداى غافلا عن نوايا الشرائح الاجتماعية للمجتمع الجزائري وخاصة الأتراك الذين أصبح لا يميل إليهم ، خاصة بعد الوضعية الحرجة للبلاد، فهو في حاجة إلى طاقة بشرية هائلة ، ولا يكون له ذلك إلا من العرب.

وفي هذا النطاق عزل الداى المفتي التركي ، وولى مكانه مفتيا عربيا، وهو السيد "محمد العنابي"⁴⁴ ، وبعث إلى جميع الأئمة بمدايا صغيرة وطلب منهم أن يتوجهوا بالدعاء إلى النبي (ص) وإلى الأولياء ليشدوا من أزره...⁴⁵ .

6- التزول الفرنسي بسيدي فرج والمقاومة المحلية

لما نزلت القوات العسكرية الفرنسية بسيدي فرج يوم 14 جوان 1830 ، أرسلت طلقات المدافع إشارة للجزائريين المقيمين حول المدينة ليصلوا إليها. وفي هذه الأثناء كانت قيادة الجيش الجزائري بيد صهر الداى "الآغا إبراهيم" ، لكنه لم يكن قائدا ممتازا ، كما كان حال "بجي آغا" سابقا. ويشير حمدان خوجة أن الداى قد سلم للآغا الجديد مخطط نزول الفرنسيين ومبالغ مالية كثيرة ليوزعها على المحاربين ، غير أن "الآغا إبراهيم" لم يتخذ إجراءات عملية جادة و لم يعط شيئا من تلك الأموال التي وجهها لهم الداى، واتجه إلى سيدي فرج⁴⁶ .

وفي 09 جوان 1830 وصل رسول من عند الآغا إلى الداى يخبره "أن الفرنسيين حطموا حامية سيدي فرج تماما وأنهم نزلوا إلى البر ، رغم مقاومته الشديدة"⁴⁷ .

وعليه أمر الداى بالانسحاب إلى هضبة اسطاوالي والوقوف بها حتى تأتي النجدة من البايات والمشايخ . وهكذا وصلت قوات باي قسنطينة إلى اسطاوالي بثلاثة عشر ألف محارب ، وكذلك الحال بالنسبة لباي التيطري الذي حل بثمانية آلاف مقاتل، وخلفه ثلاثة آلاف آخرين، وكذلك باي وهران الذي استقدم معه ستة آلاف فرد وشيوخ القبائل جندوا ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف رجل وأخيرا أمير الميزابين حوالي أربعة آلاف⁴⁸ .

وبعد تمركز القوات الجزائرية فوق هضبة اسطاوالي ، أمر الداى بالهجوم على الجيش الفرنسي ، وقرر جوائز لمن يحمل له الرؤوس الفرنسية .

وفي الغد اتصل الداى من أرض المعركة ، بخبر يقضي بانتصار القوات الجزائرية على الجيش الفرنسي ، وقد سر لذلك بعد أن كان مهموما جدا... ولكن بعدها ، سمع بهزيم الجيش الجزائري ، فاندesh وطلب من الطبيب الألماني "بفايفر" ، معالجة الجرحى الجزائريين.

وبانهزام الجيش الجزائري في اسطاوالي ، غادر "الآغا إبراهيم" المعسكر وكله بأس، مما جعل الداى يستدعي "حمدان خوجة" لمعرفة حقيقة الأمور؛ فبين للداى ضرورة المقاومة والصمود وعدم اليأس. وبعد أن قيم له سلوك

القائد "الآغا ابراهيم" ، كلفه بالذهاب إليه لرفع معنوياته وعدم التفكير في الماضي. ولما ذهب "حمدان خوجوة" إلى ميدان الصراع ، لم يجد إلا بعض الجنود المشتتين هنا وهناك.

وبعد أن إلتقى الداى ب"الآغا ابراهيم" ، قال له " إنكم ذهبتم يحدوكم الأمل ورجعتم دون أن تنجح مساعيكم " ، فأجابه قائلاً: "إن الشعب ليس إلا قطيعاً ولا بد له من راع وأن شعبكم بدون راع ، والعدو يتقدم...". ، ومنه عزل الداى "الآغا ابراهيم" ، في يوم 18 جوان 1830 وعين مكانه باي التيطري "مصطفى بومرزاق" على رأس قيادة القوات الجزائرية⁴⁹.

وحينئذ دعا الداى إلى عقد جلسة حضرها جميع الوزراء والموظفين وكبار الضباط ، وجه من خلالها أكثر من ثلاثين رسالة إلى مختلف المناطق الجزائرية ، لإعادة تنظيم القوات المشتتة وتجديد المؤنة والدخيرة وأخذها إلى قلعة مولاي حسن (قلعة الامبراطور)⁵⁰.

ومما زاد في تدهور الأوضاع ، أن الداى حسين كان يثق في وزير ماليته الخزناجي ، الذي كان نفسه يصبو إلى عزل الداى والإستيلاء على الحكم ، فجعله الداى — دون وعي — على قلعة مولاي حسن ، وكان نشاطه يتزايد خاصة أنه فاوض القائد الفرنسي "دوبورمون" حول مصير الجزائر وكان الخزناجي لا يبالي بترك أبواب القلعة مفتوحة ، أما الذين كانوا معه فقد كانوا مستعدين للفرار في كل لحظة. ونظراً لاضطرابه ، نسف مخزن البارود بالقلعة فأحدث ضجة كبيرة في المدينة⁵¹.

وبعد إستيلاء الجيش الفرنسي على القلعة يقول بفايفر: "أسرع الأهالي إلى الداى ليحملوه على التفاوض مع الفرنسيين" ، لكن الداى ظهر أنه هو الوحيد الذي لم يجد الخوف إلى قلبه سيلاً ، ورد رعاياه قائلاً: "إن حسين باشا لن يتفاوض مع الفرنسيين ما وجدت القصبه ، وإني أفضل أن أنسف القصبه والمدينة كلها، على أن أخطو خطوة كهذه .." ومنه ، بدا أن الداى كان يعتقد أن القصبه لا تهزم .

ورغم إصرار الداى ، إلا أن الحرج و الضيق كان قد اشتد بالمدينة وعلم السكان أن الداى أمر قواده أن يفعلوا بحصونهم ، مثلما فعل الخزناجي بالقلعة⁵².

7- معاهدة الإستسلام وظروفها

وبعد دخول "دي بومورن" القلعة ، جمع الداى سائر رؤساء الطوائف وأعيان البلاد ورجال القانون والفقهاء ، وشرح لهم الوضع الخطير الذي أصبحت عليه البلاد ، وطلب منهم النصيحة قائلاً: "أصدقائي لا تتحرجوا وقولوا رأيكم بصراحة في مثل هذه الظروف ، ... ولست إلا واحدا منكم ، فماذا ترون ؟ ، هل من الممكن أن نقاوم الفرنسيين مدة أطول ؟ ، أم هل الواجب أن نسلم المدينة بمعاهدة استسلام ؟ " .

وجد الحاضرون أنفسهم في حرج و حيرة ؛ فبعد النظر والروية أجابوا إجابة إهتام قائلين: "سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا ، ومع ذلك فإن فضل سموكم وسائل أخرى فإنه حر في أن يعمل ما يراه صالحاً وستجدنا عند إرادته..."⁵³.

وهكذا بدت بوادر الإهزام في صف الجهاز الإداري والإجتماعي ، خاصة بعد البيان الفرنسي الذي وزعه الفرنسيون⁵⁴.

وفي 02 جويلية 1830 اجتمع عدد من أعيان مدينة الجزائر من كبار التجار وأصحاب المال ، في قلعة باب البحرية ، وأدركوا أن البلاد ستضيع بلا ريب ، وتفاديا لهمجية الفرنسيين ، انضموا إلى اقتراح الداى الثاني الذي يقضى بالاستسلام ، شريطة أن تكون المعاهدة موقعة مع قائد الجيش الفرنسي، وكان اعتقادهم الجارى أن أمة شريفة مثل فرنسا، لا تخلف وعودها.

وبعد الإجماع على هذا الرأي ، أرسلوا وفدا للقصة ليلبغ الداى بذلك فأجابهم أنه سوف يعمل في الغد وفقا لرغبتهم وآرائهم ؛ ففي يوم 04 جويلية 1830، أرسل الداى حسين كاتبه مصطفى⁵⁵ ، مصحوبا بالقتل الإنجليزى "سان جون" للتفاوض مع "دي بورمون" ، ومعهما "أحمد بوضربة ، حسن بن حمدان بن عثمان خوجة كمتريجين ، ولم يكن الداى يدري أن مفاوضه الخزناني كان عضوا في المؤامرة التي كانت تريد الإطاحة به . ونظرا لهذه الظروف الحرجة ، وتأثير البيان الفرنسي على الأهالي، لم يجد الداى بدا من التوقيع على ما يعرف بمعاهدة الإستسلام يوم 05 جويلية 1830⁵⁶، التي تضمنت ما يلي:

1: يسلم حصن القصة ، وكل القلاع التابعة لمدينة الجزائر ، وميناء المدينة إلى الجيش الفرنسي صباح اليوم على الساعة العاشرة (بالتوقيت الفرنسي).

2: يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي تجاه صاحب السمو ،داى الجزائر ،بترك الحرية له ، وحياسة كل ثرواته الشخصية .

3: سيكون داي الجزائر حرا في أن ينصرف هو وأسرته و ثرواته الخاصة إلى المكان الذي يعينه . وإن بقى في الجزائر ، سيكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام الفرنسي ، الذي سيتولى ضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته .

4: يضمن القائد العام لجميع جند الانكشارية نفس الامتيازات ونفس الحماية .

5: ستبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة ، ولن يلحق أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات ، ولا بدينهم ، ولا بأموالهم ، ولا بتجارهم وصناعاتهم . وستكون نساؤهم محل احترام .

وقد التزم القائد العام على ذلك بشرفه .

وسيتم تبادل هذه المعاهدة قبل الساعة العاشرة ، وستدخل الجيوش الفرنسية عقب ذلك حالا إلى القصة ، ثم تدخل بالتتابع كل الحصون المدينة والميناء.

تساؤلات حول الإستسلام :

يجدر بنا في الأخير أن نتساءل عن ظروف استسلام الداى ؛ فلماذا لم تستعد حكومة الداى استعدادا جديا لهذا الغزو الاستدماري، الذي طالما هدد به الأجانب الجزائر ، خاصة أنه كان على علم بالحملة ، أهذا ناشئ عن عدم اللامبالاة بالقوات الأجنبية المعادية ؟ ، أم يعود ذلك إلى عدم الإكتراث بالخصم واحتقاره ؟ ، أم كان ذلك سوء توقع للعدو؟ ، أو كان اغترارا من الداى بعلاقته الطيبة مع القنصل الانجليزى ؟ ، ثم لماذا أغفل الداى جيش الحماية النظامي و اقتصر على طائفة الإنكشارية التي أصبحت متمردة في آخر العصر⁵⁷ .

ومهما يكن من أمر فقد اضطر الداى إلى الاجابة على الساعة الثانية بعد الزاؤل من يوم 05 جويلية 1830 ووقعت العاصمة فيما كان ينتظرها من المآل المحتوم .

إنه لقد مر محتوم اضطر إليه الداى بسبب الخيانة الداخلية في جهازه الإداري وتصميم الأهالي على الإستسلام من ناحية ، وبفعل التفاوت الحضاري في وسائل الدفاع عند الطرفين من جهة ثانية .
وتجدر الإشارة أنه رغم تصميم الداى على المقاومة ، إلا أن هذا لم يكن كافيا أمام المؤامرات الداخلية ، التي كلفت الداى نتائج سلبية ، فلولا الأحقاد والذغائن ما عزل الداى " الآغا يحيى " ، وعوضه بقائد غير كف " الآغا ابراهيم ". وهكذا كان الداى مغلوبا على أمره ، واضطرته الظروف إلى استسلام الابطال.
الهوامش

¹ -E-Plantet ,Correspondances des Deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833),Felix Alcan ,Paris,1889 , T1 ,p01.

² - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الحديث ، الطبعة الأولى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص 13 .

³ - آخر دايات الجزائر ، ولد في قرية فرله "Vurla" قرب أزمير في تركيا حوالي 1764 ، نشأ في الأستانة ، كان أبوه ضابطا في مدفعية السلطنة ، زاول دراسته في مدرسة خاصة كجندي ثم أصبح من رجال المدفعية ، ترقى إلى حوجة خيل عهد الداى "عمر باشا" (1815-1817) ، فنصبه كأمين للإيالة وأعطاه إدارة كل أملاك الدولة واكتسب ثقة الداى "علي حوجة" (1817-1818) ، ثم أصبح عضوا في الديوان . للمزيد راجع : -حمدان بن عثمان حوجة ، المرأة ، تقدم وتعليق محمد العربي الزبيري ، الطبعة الثانية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2005 ، ص ص 135-136 .

- وليام شالر ، مذكرات وليام شالر... ، تعليق وتعريب وتقديم اسماعيل العربي ، الجزائر ، 1982 ، ص 238 .

-Michaud , Biographie Universelle , Paris ,nouvelle édition, TXX(20),p203 .

_____Clausolles .M .L .(P) ، Histoire de la Régence d'Alger ،Toulouse ،1843 imprimerie de J . B ، Paya ، 2éme partie, p02 .

⁴ - للمزيد أنظر :

- جمال قنان ، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619--1830) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1987 .

⁵ -A Devoulx , « Les Principaux Français qui ont résidé en Algérie jusqu'en 1830 » ,Revue Africaine ,1872 ,p 77 .

⁶ - إشارة إلى معاهدة 26 جويلية 1817 ، بين الداى علي حوجة والملك الفرنسي لويس الثامن عشر .

⁷ --Henri Garrot , Histoire Générale de l'Algerie ,Alger ,1910 ,pp680-690 .

⁸ - محمد العربي الزبيري ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، 1974 ، ص ص 255-283 .

⁹ -Henri Daumas Grammont , Histoire d'Alger sous la Domination Turque 1515-1830 , Paris , 1890 , p 387 .

¹⁰ - انظر نص الاتفاق في :

- محمد العربي الزبيري ، مرجع سابق ، ص ص 307-309 .

¹¹ -E Mercier, Histoire de l'Afrique Septentrionale , Paris , Leroux ,1888-1890 ,T3 ,pp526-527 .

¹² - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الحديث ، مرجع سابق ، ص 23 .

¹³ -Henri Garrot , op cit , pp 641 – 645 .

¹⁴ - يحيى بوعزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1985 ، ص 126 .

¹⁵ - الزهار ، الحاج أحمد الشريف ، مذكرات ... ، الطبعة الثانية ، الجزائر 1980 ، ص 164 .

-Henri Garrot ,op cit , p 648 .

¹⁶ - حمدان بن عثمان حوجة ، مصدر سابق ، ص 142 .

- (H.D) Grammont ,op cit ,p389 .

¹⁷ - احمد الجزائري ، كيف دخل الفرنسيون الجزائر ، وضعه ونشره وقدم له صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد بيروت ، 1962 ، ص 21 .

¹⁸ -(E) Plantet , Les Consuls de France à Alger , Paris 1930 ,T 4 , p 35 .

- 19- الزهار ، مصدر سابق ، ص 164 .
 - يقر حمدان خوجة أيضا أن الضرب وقع من الداوي . راجع :
 - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 142 .
- 20- بفايفر سيمون ، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر ، تقدم وتعريب أبو العيد دودو ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 ، ص 33-34 .
- 21- أحمد الجزائري ، مصدر سابق ، ص 21 .
- 22- H.D Grammont ,op cit , p390 .
 -Henri Garrot ,op cit , pp650-651 .
 -جمال قنان ، "الأزمة الجزائرية الفرنسية عام 1827 وحدة التراب الوطني" ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات ، عدد خاص ، النصف الثاني من سنة 1984 ، ص 13 .
- 23-Charles Ferraud, « Destruction Des Etablissements Français de la Calle en1827 , D'apres Des Documents indigènes » , Revue Africaine ,1873 , p 426 .
- 24- يحيى بوعزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1830-1500) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ، ص 131-132 .
- 25- Gabriel Esquer , La Prise d'Alger 1830 , Paris , 1929 N^{elle} édition ,p108 .
- 26- حمدان بن عثمان خوجة ، مصدر سابق ، ص 145-146 .
- 27- بفايفر ، مصدر سابق ، ص 59 .
- 28-(N) ,Robin , « Notes Historiques sur la grande kabylie», Revue Africaine ,1876 ,p43 .
- 29- بفايفر ، نفسه ، ص 69 .
- 30- ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر 1800-1830 ، الجزائر ، 1979 ، ص 68 .
- مولاي بالحيمسي ، "حصار الجزائر 1827-1830" ، مجلة الدراسات التاريخية ، القسم الفرنسي ، العدد 01 ، (السنة الاولى 1986) ، ص 11 .
- 31- (E) Mercier , op cit , p 532 .
- 32- يعود اهتمام الفرنسيين باحتلال الجزائر إلى الملك "لويس التاسع" 1226-1270 ، و "دي كرسى" الذي وضع مشروعا عام 1791 ، و القنصل الفرنسي "جون بون سان" عام 1799 ، وأحد الموظفين السامين في القنصلية الفرنسية "تيدينا" صاحب مشروع 1802 .
- 33- وصل الضابط "بوتان" الجزائر في 24 ماي 1808 ومكث بها حتى 17 جويلية ، وخلالها جاب البلاد من شرقا وغربا ، متجسسا على الحصون ، دارسا السواحل الجزائرية وخطة التزول بدقة من برج البحري شرقا إلى سيدي فرج غربا ، وكل ما يتعلق بالشؤون الإستراتيجية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية. واقترح التقرير أيضا عدد الجيش الضروري ما بين 35 - 40 ألف جندي ، معظمهم من المشاة وأن يكون الإنزال بسيدي فرج ، لخلوه من المدافع والجنود واقترح زمن الحملة ما بين ماي و جوان و المدة لا تتجاوز الشهر . راجع:
- أبو القاسم سعد الله ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث- بداية الإحتلال ، الطبعة الثالثة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1982 ، ص 21 .
- 34- (E) Mercier , op cit , pp 532-534 .
- 35- ميناء بجزر البليار ، بلغ عدد سكانه سنة 1882 ، 16000 نسمة .
- 36- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، القسم الثاني ، الطبعة الثانية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1982 ، ص 188 .
- 37- صلاح العقاد ، المغرب العربي في بداية العصور الحديثة ، القاهرة ، 1962 ، ص 100 .
- 38-(J) ,Bresnier , Chrestomathie Arabe , Rapport d'un espion espagnol à Hocein Pacha sur le bruit de l'expédition en 1830 , Alger , pp 138-141 .
- 39- احمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ، مذكرات... ، تقدم محمد العربي الزبيري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1973 ، ص 11 .
- 40-(L) Pechot ,Op cit ,p 145 .
- 41- عبد القادر زيادية ، "الداوي حسين واستمرار المقاومة في المتيجة" ، الثقافة ، السنة الخامسة ، عدد 26 ، أبريل — ماي 1975 ، ص 127 .
- 42- حمدان بن عثمان خوجة ، مصدر سابق ، ص 149 .
- 43- Charles-André JULIEN, Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, P.U.F, 1964, p29 .

- ² - هو أبو عبد الله، محمد بن محمود الجزائري، الحنفي، الأثري، الشهير بابن العنابي (1775-1851): من أسرة علمية ودينية، عاصر الثورة الفرنسية و اعتداءات الإنجليز، الأمريكان، الفرنسيين والإسبان وغيرهم على الجزائر، عايش حصار الفرنسيين للجزائر ثم احتلالها؛ فحاول إزاح قوات الاحتلال بما تقتضيه معاهدتهم مع الداي حسين 1830، فنفي بسبب موقفه من اغتصاب الاحتلال لأموال الأوقاف. تولى مناصب عديدة: القضاء، الكتابة، السفارة، الإفتاء. من مؤلفاته وأشهرها "السعي المحمود في نظام الجنود". راجع أكثر:
- أبو القاسم سعد الله. ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977.
- ⁴⁵ - بفايفر سيمون، مصدر سابق، ص ص 63-75 .
- ⁴⁶ - حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص ص 151-156 .
- ⁴⁷ - الزهار، مصدر سابق، ص 172.
- أحمد الجزائري، مصدر سابق، ص ص 29-30.
- ⁴⁸ - Esquer , op cit ,p 317 .
- ⁴⁹ - حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص ص 158-159، 166.
- ⁵⁰ - الزهار، مصدر سابق، ص 174 .
- ⁵¹ - نفسه، ص 172.
- بفايفر، مصدر سابق، ص 99 .
- ⁵² - بفايفر، مصدر سابق، ص 99 .
- ⁵³ - حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 168.
- ⁵⁴ - أنظر نص البيان :
- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص ص 26-28.
- ⁵⁵ - Pechot ,op cit ,pp 154-155 .
- ² - حمدان خوجة، مصدر سابق، ص ص 171-172.
- عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص ص 69-70.
- (L,de) Samboeuf , « Départ d'Alger ou Dernier Dey », Bulletin de la Societé de Géographie d'Alger et de L'Afrique de Nord ,T 17, p 222.
- ⁵⁷ - صلاح العقاد، المغرب العربي في العصور الحديثة، ص 101 .